المصطلح اللساني عند ابن السّرّاج

الأستاذة: بلقاسم إيمان فاطمة الزهراء

جامعة عبد الحميد بن باديس. مستغانم

ليس من العلمية في شيء أن تكون المصطلحات اللسانية وضعت دفعة واحدة، لما في ذلك من مخالفة لطبيعة الأشياء. فقد مرت المصطلحات اللسانية بالمراحل التي مر بها علم اللسان نفسه، إذ بدت ساذجة، ثم تدرجت إلى أن وقفت على قدميها[1].

ولعله ليس صحيحا أنه" قد عرف النحو أولى المصطلحات في عهد الخليل[2]، بل إن الاستثناء والبدل و التحقير و النسب، وما ينصرف وما لا ينصرف ... مصطلحات قد تداولها لسانيون قدماء قبل الخليل أمثال: عبد الله بن أبي إسحاق وأبي عمرو بن العلاء وغيرهما.

ومن قبل جيل ابن أبي إسحاق استعمل أبو الأسود الدؤلي مصطلحات البناء من : ضم وفتح وكسر[3]، التي هي من المصطلحات النحوية الأولى ، وكل ذلك يؤكد "الغموض الذي ...حف بنشأة المصطلحات النحوية". وهو الغموض الذي نغمض عنه العين مولين أوجهنا شطر التطور.

لا يجادل أحد في أن النحو بلغ مع ابن السراج حدا من النضج المنهجي لم يكن بلغه ولا قاربه قبله. ولا يجادل أحد كذلك في أن النضج المنهجي مقتض إلى حد ما النضج الاصطلاحي .

صحيح أن بعض المصطلحات لم يبلغ أشده الاصطلاحي عند الرجل، وأن بعضها الآخر أخرج شطأه، بعده، فاستغلظ فاستوى على سوقه لكن ابن السراج عرف على يده المصطلح تطورا هائلا، ولعل أنجع وسيلة لإبرازه هي عقد موازنة بينه وبين سيبويه، ثم بينهما وبين المبرد غير أننا ملزمون، قبل ذلك ببيان جوانب المصطلح التي يمكن أن يلحقها التطور من وجهيه العام و الخاص:

فالعامّ بأن يبحث فيه عن مفاهيم جديدة ظهرت أو تسميات أحدثت، أو حدود صيغت، فلكل مصطلح مراحل ثابتة في حياته أهمها: ظهور مفهومه و اسمه ومن ثم تعريفه.[4]

والخاص بأن يبحث في كل مصطلح عن التطور الذي يكون قد أصابه، وذلك التطور الحاصل في المصطلح إما أن يمس جانبه الدلالي فتضيق دلالته أو تتسع، وإما أن ينصب على الناحية الشكلية فيه، فيقصر بعد طول أو يموت بعد ولادة، أو يتقلص حجم استعماله بعد الشيوع والممارسة.

مظاهر تطور المصطلح عند ابن السراج

شمل تطور المصطلح عند ابن السراج كافة النواحي الشكلية و الدلالية. وسيظهر ذلك من خلال مقارنتين أجريهما بينه وبين علَمَين من علماء النحو، هما سيبويه والمبرد.

أوّلا: بين سيبويه وابن السّراج

من حيث التسمية: سمي في الأصول كثير من المفاهيم النحوية تسمية لبست ثوب البقاء، وسارت مع الأيام، ومن ذلك مايلي:

الجملة ، الفضلة، الفائدة، المرتبة، الصيغة، الحقيقة، المجاز، التأويل، التركيب، التمييز، الإضراب، الشرط، العائد، الثلاثي، الرباعي...أفعل التفضيل، المفعول المطلق، الإضافة المحضة، الاستثناء المنقطع.

جل مفاهيم هذه المصطلحات لم يسم في الكتاب تسمية اصطلاحية قارة، فسيبويه عندما تحدث عن الاستثناء المنقطع سجل" هذا باب يختار فيه النصب، لأن الآخر ليس من نوع الأول... وذلك قولك : ما فيها أحد إلا حمارا" [5]وعندما أراد أن يبين معنى الإضراب، قال " وأما (بل) فلترك شيء من الكلام وأخذ في غيره، فضلا عن أن جميع المصطلحات المذكورة أعلاه لم ترد في الكتاب بصيغها المذكورة هنا مع أن هذه المصطلحات جوهرية في النحو العربي. وليست هذه المصطلحات هي وحدها التي لم ترد في الكتاب فهناك مصطلحات كثيرة أخرى وردت في (الأصول) لم ترد في الكتاب.

مصطلحات مفردة	مصطلحات مركبة
المؤثر، الأصلي، التبرئة، البغداديون، المجهول، الخفض، الراجع ، المستتر، الشرط، الشائع، المعترض، الاعتداد، المطابق، الإدراج، الصورة، الذاتي، الصناعة، الضرورة[6]، العماد، العموم، الخصوص، العهد، الاستعانة، المفاعيل، الاستقرار، المنسوب، الجحد، الإلصاق، جلب، المضي، الغيبة، اكتنف، التوحيد، الواصل، النسق، الوعاء، الربط، التوابع، الإعلال، الناقص، الملاقاة.	التأنيث الحقيقي، ما يجري وما لا يجري، صاحب الحال، صيغة المجهول، طلب الفعل، تصحيح المسائل، الفعل الحقيقي، الفاعل في المعنى، أفعال النفس، أفعال الحواس، فعل التعجب، المفعول على السعة ، المفعول الذي لم يسم من فعل به، علة العلة، علل ثوان...

وهذه المصطلحات ضروب منها ما هو مصطلح كوفي بالدرجة الأولى على افتراض وجوده كالجحد و المجهول والفعل الدائم، ومنها ما أفرزه الخلاف الكوفي البصري كالبصريين و الكوفيين(ورد هذا المصطلح عند سيبويه دالا على قراء الكوفة)[7] ، والبغداديين، ومنها ما أحدثه المبرد و ابن السراج.

ثانيا: من حيث التعريف

التعريف مظهر من مظاهر نضج المصطلح وآية من استقراره، ولم يعن به سيبويه عنايته بالشرح و التمثيل. وليس معنى ذلك أنه لم يرد عنده اطلاقا بلى، ورد عنده ، ولكن بشيء من الندور و الشح، فقد عرف الفعل مثلا بقوله: " وأما الفعل فأمثله أخذت من لفظ أحداث الأسماء وبنيت لما مضي ولما يكون ولم يقع، وما هو كائن لم ينقطع[8]، كما عرف الترخيم" الترخيم حذف أواخر الأسماء المفردة تخفيفا"[9] ، والمسند و المسند إليه[10]، و المقصور و الممدود[11] ، وأما ابن السراج فقد كان مولعا بالتعريف إلى حد ما و التقسيم إلى حد كبير، تراه يعرف النحو بقوله : النحو ... علم استخرجه المتقدمون فيه من استقراء كلام العرب[12]ويعرف الفعل بأنه "ما دل على معنى وزمان[13]ويعرف المبتدأ بأنه ما جردته من عوامل الأسماء و من الأفعال و الحروف و كان القصد فيه أن تجعله أولا لثان...[14] و الخبر بأنه " هو الذي يستفيده السامع ويصير به المبتدأ كلاما[15]و التصغير بأنه :" شيء اجتزئ به عن وصف الاسم بالصغر وبني أوله على الضم، وجعل ثالثه ياء ساكنة[16] قبله فتحة " وغليك طائفة من المصطلحات التي عرفها ابن السراج تعريفا ما :

المصطلح	الإحالة	المصطلح	الإحالة	المصطلح	الإحالة
النحو	35/1	المبتدأ	58/1	النكرة	148/1
الاسم	36/1	الخبر	62/1	المتعدي و غير المتعدي	169/1
الفعل	38/1	الفاعل	72/1	التأنيث الحقيقي	173/1
الحرف	40/1	الفعل الذي لا ينصرف	98/1	الضم الذي يضارع	328/1
التنوين	46/1	التصرف	98/1	الفتح	328/3
جمع	46/1	اسم الفاعل	122/1	الترخيم	359/1

السلامة					
جمع التكسير	47/1	اسم المفعول	130/1	المضارع للمضاف	390/1
العدل	88/2	الاسم المنصرف	79/2	الصفة	53/2
الإلغاء	257/2	التصغير	36/3	الإدغام	160/3
المقصورو الممدود	415/2	النسب	63/3	ضرورة الشاعر	435/3

ثالثا: من حيث حجم الاستعمال

لعلّ موادّ كثيرةَ رأت النور بعد سيبويه، عُدّت مصدرا خصبا للمصطلح النحوي كما تضاعف بعد استعمال بعض المواد و المصطلحات في الأصول فمن المواد التي أهملت في الكتاب : وعاشت في الأصول (أثر، خفض، ركب، ستر ، شيع، صوغ، نسق) و من المواد التي تضاعف حجم استعمالها : حقق[17] ، وصلح[18] ، وحكم[19] ، وجنس[20] ، وشرط[21] ، ورجع[22] .

ومن المصطلحات التي تضاعف حجم استعمالها كذلك:الضمير [23]والأصول، و المذهب والأدوات[24] .

وبالمقابل أهمل ابن السراج مصطلحات سيبويهية، بعضها سوق الاستعمال وبعضها كتب له البقاء فمن الضرب الأول مجاري أواخر الكلام، والمطل[25]و التمطيط و التمطيط والضغط و الخزل... ومن الثاني حروف القلقلة و الاختلاس و المسند و المسند إليه.

ولعل ابن الراج كان يميل نحو تشقيق المادة وتوليد المصطلحات منها ونزوعها نحو الجمع ومن ذلك وما ورد في الأصول و لم يرد في الكتاب : البيوت ، الجوازم، الجموع، الجمل، الحدود، الحقوق، الحقائق، المذاهب، المراتب، المسائل، الأسباب، الشرائط، التصاريف ، مفاعيل، أنصاف نعوت، مبتدآت، مبنيات ، مبهمات، مجرورات ، جوابات، المحذوفات، مخفوضات، مرفوعات، مسميات، ضرورات مضمرات، المعربات، اعتراضات ، اعتلالات ، مفعولات ، تقديرات، منقلبات، كنايات، مكنيات، تلقيبات، مدات، منصوبات، منقوصات، نكرات، موزونات، موصوفات، صلات ، توكيدات.

ثانيا: بين ابن السراج والمبرّد

يعدّ ابن السراج أحد تلاميذ المبرد، ومن أذكاهم وأكثرهم صلة به، فقد نقل عنه وصرّح به في الأصول ما يربو عن المئة مرّة، ومما يمكن ملاحظته في المصطلح النحوي عند

المبرد هو اقترانه بالمصطلح البلاغي، وقد تأثر ابن السراج بهذا المنحى، فمن مصطلحات المبرد النحوية عنده: الحقيقة والاستعارة، والخبر والطلب، فقال في الخبر :"الخبر ما جاز على قائله التصديق والتكذيب"[26]، وما يلاحظ في أصول ابن السراج أن كثيرا من المصطلحات التي جاءت في الكتاب غاب بعضها في الأصول ، ولكن إذا ما جئنا إلى المقتضب رأينا أنّ كثيرا من استعمالات المبرد كرّرها ابن السراج، ومن المصطلحات التي كان للمبرد فضل في توجيه ابن السراج نحوها مصطلح"المنهاج" الذي كرّره مرات عديدة، ومصطلح " المفعول المطلق"[27].

يجنح المبرد جنوحا قويا نحو التّأصيل، مما أدى إلى تغليب التنظير على المعطيات، فالمفاهيم والمصطلحات لها أصل ترجع إليه، ثم يأتي المسائل والفروع، ولعل هذا ما دفع إلى ابن السراج أن يختار لكتابه عنوان الأصول.

تضمنت التحليلات السابقة جملة من النتائج:

لقد نسب ابن السراج كثيرا من المصطلحات الوادرة في الأصول إلى أهلها إما تصريحا كأن يقول:"واعلم أنّ الأشياء التي يسميها البصريون ظروفا يسميها الكسائي صفة، والفراء يسميها محالّ"، أو يقول:"هذا وما أشبهه من النعوت يسميه الكوفيون خلفا، يعنون أنه خلف من اسم... والبصريون يقولون صفة قامت مقام الموصوف". وإمّا تلميحا بأن يورد نصا للكوفيين أو لأحدهم متضمنا مصطلحا خاصا بهم، كقوله:"وأما الكسائي يقول النكرات يبتدأ بأخبارها قبلها...".

أن المصطلح اللساني وثيق الصلة بالمكان، وذلك لطبيعة الكلام الخطية، وطبيعة أحد أهم معاييره أعني (العامل) وما يقتضيه من مجالات؛ ولذلك كثر حديث اللسانيين القدامى عن (الموقع) و(المحل) و(الموضع) وكذلك عن (التقدم) و(التأخر) و (الرتبة) و(المنزلة)، كما أسرفوا في استعمال (البناء) وما اشتق منه وما ترتب عليه.

أنه غير صحيح القول إن سيبويه حشد في كتابه مصطلحات النحو جميعها، و أن النحاة بعده وقفوا عند مصطلحاته وحدوده.

أن المصطلح اللساني العتيق تطور على يد ابن السراج تطورا كبيرا مقارن بسيبويه.

أنّ ابن السراج أثّر من الناحية المصطلحية فيمن جاء بعده، كما تأثر تأثرا قويا بمن قبله، فكان حلقة وصل بين سابقيه من النحاة واللغويين ومعاصريه و من بعده، وهو ما يضفي على مصطلحاته أهمية خاصّة جديرة بالملاحظة والدرس.

الهوامش:

1- عبد الرحمان السيد، مدرسة البصرة النحوية، دار المعارف، ط01، القاهرة، ص 324. وينظر:مراحل تطور الدرس النحوي، عبد الله بن حمد الخثران، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ط01، 1993م، ص 102.

2- مهدي المخزومي: مدرسة الكوفة و منهجها في دراسة اللغة و النحو، دار الرائد العربي، ط03، بيروت، 1986م، ص 303.

3- ينظر : ظاهرة الإعراب في النحو العربي وتطبيقاتها في القرآن الكريم، أحمد ياقوت سليمان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983،ص 50.

4- ينظر: مصطلحات النقد العربي لدى الشعراء الجاهليين والإسلاميين، الشاهد البوشيخي، دار القلم، بيروت، ط01، 1993، ص 63.

5- سيبويه، الكتاب، تحقيق: عبد السلام، دار الجيل، ط01، بيروت، 1991م، ط، 223/4.

6- مصطلح (الضرورة) بهذا اللفظ لم يرد في الكتاب ، بل ورد مفهومه مسمىب" ما يحتمل الشعر" الكتاب. 26/1

7- الكتاب، 399/2.

8- المصدر نفسه، 12/1.

9- المصدر نفسه، 239/2.

10- المصدر نفسه، 23/1.

11- المصدر نفسه، 3/ 536- 539.

12- الأصول في النحو، أبو بكر بن السراج، تحقيق: عبد الحين الفتلي، مؤسسة الرسالة، ط01، بيروت، 1985م، 35/1.

13- المصدر نفسه، 38/1.

14- المصدر نفسه، 58/1.

15- المصدر نفسه، 62/1.

16- المصدر نفسه، 36/3.

17- وردت في الكتاب حوالي 30 مرة ووردت في الأصول أكثر من خمسين ومائة مرة.

18- وردت في الكتاب أقل من خمس مرات مرة ووردت في الأصول حوالي 70 مرة .

19- وردت في الكتاب إلاّ مرة واحدة بينما ووردت في الأصول أكثر من مائة وعشر مرات.

20- وردت في الكتاب أقل من خمس مرات رة ووردت في الأصول حوالي 30 مرة .

21- وردت في الكتاب مرة واحدة ووردت في الأصول حوالي 80 مرة .

22- وردت في الكتاب مرة واحدة ووردت في الأصول حوالي 80مرة.

23- ورد في الكتاب حوالي خمس مرات وورد في الأصول أكثر من 150 مرة.

24- استعمل مرة واحدة في الكتاب وقريبا عشر مرات في الأصول .

25- ينظر الخصائص : أبو الفتح ابن جني، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، دط، دت، 121/3، 124، 328.

26- ينظر: المقتضب، أبو العباس المبرّد (ت285هـ)، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، بيروت، عالم الكتاب، ط01، 1985م، 03/ 90.

27- المصدر نفسه، 03/ 116 و 287/04.

قائمة المصادر والمراجع:

01- ابن جني، أبو الفتح:الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، دط، دت.

02- ابن السراج، أبو بكر: الأصول في النحو، تحقيق: عبد الحين الفتلي، مؤسسة الرسالة، ط01، بيروت،

03- 1985م.

04- البوشيخي، الشاهد: مصطلحات النقد العربي لدى الشعراء الجاهليين والإسلاميين، دار القلم، بيروت، ط01، 1993.

05- الخثران ، عبد الله بن حمد:مراحل تطور الدرس النحوي، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ط01، 1993م.

06- سليمان ،أحمد ياقوت: ظاهرة الإعراب في النحو العربي وتطبيقاتها في القرآن الكريم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983.

07- سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان: الكتاب، نحقيق: عبد السلام، دار الجيل، ط01، بيروت، 1991م.

08- السيد، عبد الرحمان: مدرسة البصرة النحوية، دار المعارف، ط01، القاهرة.

09- المبرّد ، أبو العباس (ت285هـ): المقتضب، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، بيروت، عالم الكتاب، ط01، 1985م.

10- المخزومي، مهدي: مدرسة الكوفة و منهجها في دراسة اللغة و النحو، دار الرائد العربي، ط03، بيروت، 1986م.